# جامع احمد ابن طولون

[ حديث ألقى فى نادى النجادة فى ليلة القدر ]

للأستاذ أحمد رمزى بك

قنصل مصر فى سوريا ولبنان

أيها الحفل الكريم

أشكر لكم دعوتكم إياى ، وأقدر عواطفكم نحوى . لقد اعتاد الناس والقراء أن يقدموا لأنفسهم بكلمة أولية يجعلونها كمدخل إلى الموضوع الذى سيكون محل حديثهم وسمرهم ، وإنى لا أملك نفسى دفع هذه العادة الطيبة المستملحة بل سأخضع لها فأقول ، بأننى لم أستطع أن أختار موضوع حديث الليلة حتى أول أمس . فقد كنت مأخوذاً بين عدة واجبات وأمور لم يكن لى بد من أن تأخذ وقتى وتفكيرى

والآن وقد خلوت لنفسى أعود إليكم ، وقلبى مطمئن من ناحيتكم لأنى واثق من أنكم ستولوننى الكثير من التسامح فما أنا إلا فرد منكم وأنتم أيها السادة إخوان بل رفقاء لى ، فلا تنتظروا المعجز من الكلام ، ولا تطلبوا منى ما هو فوق المتناول

فما أنا إلا واحد من هذه الجماعة يريد أن يتحدث حديثاً بفيدنى هذه الليلة المباركة الميمونة أعادها الله عليكم ، وقد تحققت الآمال التى نصبو إليها جميعاً وأشرقت على العالم بأكمله شمس يوم الحرية والعدالة والديموقراطية الصحيحة

إننى مؤمن واثق بأن الأيام التى وُعدنا بها وخطتها يد العناية فى سجل القدر قد أصبحت حقيقة آتية لا ريب فيها ، وحينما يأتى يوم النصر وتتحقق آمال الشعوب الحرة سيهتف جميعاً : الحمد لله الذى صدق وعده ...

* * *

موضوع حديث الليلة قد نأخذه كموضوع واحد مكون من ثلاثة أشياء أو ثلاثة مواضيع تجمع بينها صلة الصلات . أما الفكرة الأولى التى تسيطر على فهمى تاريخ مسجد من مساجد الله هو مسجد احمد بن طولون . فنحن فى مصر قد أولع تاريخنا بإنشاء المساجد حتى أصبحت فى عاصمتنا تعد بالمئات وهى لنا تراث للفن العربى فى مختلف أدواره . ولقد اتجهت منذ

---

مشاركتهم فى رفع المستوى المسرحى والسينمائى المصرى ، هذا المستوى الذى ينحط برواياته وشمبذاته ويجعلنا ضحكة الدنيا وسخرية العالم ، فهل نزلوا إلى الميدان ؟

ولقد سمعت كذلك من أحد المتصلين بهؤلاء الشيوخ أن الشاعر إنما ينبغى أن يكون غنائياً فحسب ، لأن كل نظم غير غنائى هو نظم مصنوع فحسب ، وكل نظم مصنوع ، درامى أو نظم ملاحم أو Ballad قصص أو Romance ، لا يمكن أن يكون صادراً عن روح شاعرة تحسه وتنفعل به ... وهذه فى رأيى نظرة ضيقة أو حجة يراد بها الجدل الفارغ والدفاع الذى لا يستقيم لصاحبه . وإلا فأين تذهب تلك الصور البارعة التى تسلب الشاعر وتسحر القلوب من صور الإلياذة والأوديسة والأنيادة والكوميديا الإلهية والفردوس المفقود ... ؟ ثم أين تذهب أشعار تاسو وأريوستو ودَى فيجا وسرفنتس وراسين وكورينى القصصية الرائعة ؟ ... أم أين تذهب المشاهد الساحرة المحشودة فى هملت والأمير جون وعطيل ومكبث والملك لير وروميو وجولييت وتاجر البندقية وفاوست وتيمورلنك وغيرها وغيرها مما لا يكاد يستقصيه حصر ولا يقع تحت عدد ؟

كم كان بودى أن أعرك أذن الشاعر الشيخ الذى أرسل هذا الهراء ، ثم أصرخ فيها بأعلى أصوات هومر وڤرجيل ودانتى وملتون وشيكسبير ومارلو وشعراء الطليان والأسبان واليونان والألمان ، لكى يعلموا أن الشاعر الذى يغنى لنفسه بقصيدة أو مقطوعة من بضعة أبيات أو من عشرين أو ثلاثين بيتاً هو شاعر أنانى كسول ... أما الشاعر الذى يعد آلام الناس من آلامه ومشاعرهم من مشاعره وقضايا قلوبهم هى قضايا قلبه ، والدموع التى تنذرف من مآقيهم كأنها تنذرف من مآقيه ... هذا الشاعر الذى يستجيب لأحزان الناس فيرددها قصة أو ملحمة أو درامة ، إنما هو الشاعر الحق الجدير بالبقاء ... هذا الشاعر ... هو الذى أبحث عنه بين شعرائنا الشباب ، ولن أفقد الأمل فى أن أعثر عليه بين شعرائنا الشيوخ .

( يتبع )

دمنى خشبة

حملت بهذه الديار إلى هذا النوع من الأبحاث فقلت لنفسي يوماً : لماذا لا يتجه الأدب لتمجيد هذه الآثار وجعل الأحجار تنطق فتعيد إلينا ذكريات الماضي

وأمامنا كتاب الفرنجة وقد عالجوا مثل هذه الأمور فمن في عشاق الأدب الإنكليزي من لم يقرأ ما كتبه « راسكين » عن آثار البندقية ؟ إن منادمة الآثار قد حببت الآثار إلى العالم الغربي وحببت الشرق أيضاً لأهل الغرب

وما نحن إذا بقينا كما كنا ولم نعبأ بشيء من الماضي ؟

ولماذا لا أكتب شيئاً يحبب إلى هذا الجيل الكريم زيارة القاهرة والتعرف إلى شيء من مساجدها وآثارها ؟ وهل هي ملك لمصر وحدها ؟ لا ، لقد اشتركنا جميعاً في إنشائها فهي لنا ولكم . وهي عنوان التراث العربي والتفوق العربي أمام العالم بأجمعه . لهذا كله قد فكرت أن أجعل حديث الليلة عن جامع ابن طولون ؛ وليس من السهل أن نكتب عن جامع ابن طولون بغير أن نذكر كلمة عن صاحبه . وهذه هي الوصلة الأولى والشق الأول من هذا الحديث

وإني لا أعرف تاريخاً قد ظلمته الأيام وغيرته النزعات وأهمله أهله مثل تاريخ مصر العربية ؛ ولا أعرف تاريخاً قديماً غنياً بمصادره ومؤلفاته كتاريخ مصر في طورها العربي الخالد . فإن ظلمت الأيام هذا التاريخ فقد ترك لنا أهله المطول من المراجع والكتب المطبوع منها والمخطوط

فما على أبناء هذا الجيل الواثب المتطلع نحو العلا والمجد إلا أن يقلب صفحاته ليتعرف إلى نفسه وليكشف عن قوته وهي قوة لو تعلمون عظيمة

« إن تعهد الوعي القومي يستدعي الاعتزاز والتمسك بالشخصية ؛ وإن الأمم التي تعرف شخصيتها وتتمسك بها وتعتز ، هي التي تجعل العالم المتمدن يقر لها بالاحترام والبقاء

## نظرة في تعريف أحمد ابن طولون

في القرن الثالث الهجري ، كانت الدولة العباسية تسيطر على جزء من أقطار المعمورة . وكان عهد الخلفاء المجاهدين الذين يباشرون القتال بأنفسهم قد انتهى بوفاة المعتصم ، وكان النزاع بين حزبي العرب والفرس قد أضعف الفريقين ، فكان أن ظهر عليها عنصر إسلامي جديد هو العنصر التركي ، وكان نفوذ العاصمة مضعضعاً لترامي الأطراف واتساع الملك . ولذلك أدخل نظام الأقطاع وتقاسم القواد والأمراء الولايات

وكان عهداً تسوده المكائد والدسائس . وقد هبط المستوى الخلقي وماتت روح الكفاح والمقاومة أو انتقلت من المدن حيث بدأت تظهر عوامل الفوضى والفناء والانحلال إلى الثغور والحدود ، حيث الجهاد الدائم يدعو إلى التضحية والمقاومة وجمع الشمل والكلمة

في هذا العصر نبغ أبو العباس أحمد بن طولون وظهرت شخصيته الجبارة تدعمها قوة من مكارم الأخلاق وشيم الرجولة ، وشدة ذكاء وفراسة ، أنف من حياة المدن حيث السفاسف والدسائس والحيل والخداع ؛ حيث توضع الولايات والأمصار لتباع وتوزع على المحاسيب والأنصار ، واتجه إلى الثغور حيث الرباط والمدة والدعوة لله وحده . حفظ القرآن وسمع الحديث ، وفصح بالعربية فملك ناصيتها ، كتابة وخطابة ، فكان تركياً مستعرباً يجمع أحسن ما في العروبة من مزايا على أحسن ما لدى الترك من أخلاق . وإذا قدر للناس كشف دخائل التاريخ في القرن الثالث الهجري دراسة وتحليلاً ، أمكن الحكم أنه بعد وفاة المعتصم لم يعرف التاريخ العربي رجلاً فذاً يدانى ابن طولون في قوة شكيمته وسداد رأيه ، ومضاء عزيمته ونفاذ بصيرته

ولقد بقيت شخصيته مجهولة ، حتى قيض الله الظروف فنشرت سيرة أحمد بن طولون لمؤرخ عاش في عصره هو أبو محمد عبد الله بن محمد البلدي ، وكشفت نواحي مجهولة عن حياته الحافلة بالجليل من الأعمال وعن صفاته ومزاياه وتفوقه . وستبعث هذه الحياة العظيمة الكثير من التنقيب في تاريخ مصر العربية ، وتخرج ألواناً من الكتابة في المباحث والتراجم ، لأنها حياة حافلة لرجل عبقري منتج رج ملك الدولة العباسية رجاً ، وهز العالم العربي وأنشأ بذكائه ومقدرته على قيادة الرجال وقوة سيفه دولة وأسرة لها مكانتها ومنزلتها .

( للحديث صلة )

أحمد رمزي